البعدُ الحضاريُّ للُّغة العربية

د. أحمد تمَّام سليمان

أستاذ البلاغة والنَّقد

كلِّيَّة الآداب - جامعة

بني سويف- مصر

إنَّ النَّظرة العامة لعيون المشتغلين بإحياء التُّراث اليوم يجب أن ترتكز على المخطوطات؛ إذ تُعَدُّ الأوعية العلميَّة للحضارة العربيَّة الإسلاميَّة عبر التَّاريخ التَّليد، بل وللحضارة الإنسانيَّة عامةً؛ لأنَّ العرب جزءٌ من بنيان الحضارة العالميَّة، لاسيَّما في العصور الوسطى، التي كانت الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة حينها نجم الحضارات، وكان المخطوط العربيُّ بمنزلة القنديل الذي يضيئ أوروبا.

إنَّ التُّراث اللغويَّ حَمَلَهُ عُدُولُ العرب من كل خَلَف، حتى روى ماء اللُّغة شجرة الدين، فاستقام ظلها وطاب قِطافها على مرِّ العصور، ولمَّا يَسَّرَ الله القرآن الكريم لانت اللُّغة العربية على لسان الأعاجم فحملها كذلك عُدُولُهُمْ، ولقد كانت العلوم العقليَّة والنَّقليَّة في الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة ذات روافدَ حضاريَّة عتيقة، لأمم سبقتها أو عاصرتها، وذلك من قبيل التأثير والتأثر بين الحضارات الإنسانيَّة، التي ما أغفل الإسلام فضلها، وما حارب الجانب المشرق منها، بل اعترف به، وَنهل منه، وأتمَّ صَنيعَهُ.

وعند التَّأثُّر بين الحضارات نلمس في تراثنا ذلك التأثر، الذي أعملت فيه العروبة والإسلام يد الاقتباس، المشوبة بالتَّصحيح تارةً، والتَّطوير تارةً أخرى؛ بالتصحيح ليدخل المنتج الحضاريُّ القديم في لحمة الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة، ويصطبغ بطابعها، وبالتَّطوير نتيجةً لما ابتكرتهُ الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة بعقول أبنائها، وما شيدته سواعدهم الفتية؛ ليقدم في النهاية منجز العرب المسلمين.

فالهويةُ عملةٌ ذاتُ وجهين، الوجه الأول: الدين، الوجه الثاني: اللغة، وهويتنا الثقافية ركناها الإسلام والعروبة، فالأول للديانة والثاني للإبانة، فإن كان القرآن هو دستورها، فإنَّ العربيَّة هي لغتها، قال -تعالى-: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ ﴾ سورة إبراهيم- الآية 4.

والحفاظ على الهوية يكون بالبحث عن الوحدة، فبالوحدة تكون الأمَّة، قال -تعالى-: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ سورة الأنبياء الآية 92، وقوله: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴾ سورة المؤمنون الآية 52، ووفقًا لهذيْن الركنين يصير انتماؤنا إلى الأمتين الإسلاميَّة والعربيَّة، فإن كانت الأمة بمنزلة الهدف فإنَّ الوحدة بمنزلة الوسيلة، وبدون الوحدة تتمزق الأمة جذعَ مذع، ويتفرق أبناؤها شذر مذر، فليس بعد انشقاق الصف وافتراق العصا سوى أن تصير الأمة أثرًا بعد عين!

هنا تكْمن الحاجة الماسة إلى إحياء تراثنا، والبحث عن تعزيز مقدراتنا الحضاريَّة، والنهوض بمقوماتنا الثقافية؛ لما لذلك كله من دور في بناء الشخصية، وتكوين الهوية، وتصحيح صورة العربيِّ عامةً والمصريِّ خاصةً، والتي شوهت على الصعيد العالميِّ، فأصبح التطرف لصيقا بفكر العرب، وأصبح الإرهاب لصيقا بفعل العرب، بل إننا نجد الكثير من مؤسساتنا التعليمية تحل تدريس اللُّغات الأجنبية محل اللُّغة العربيَّة، مما يبت الصلة بين الناشئة والحرف العربيِّ، كما وجدنا الكثير من الأعمال الدرامية من أفلام سينمائيَّة ومسلسلات تليفزيونية، تعرض مشاهد لمتطرّفين وإرهابيين يتحدثون باللُّغة العربيَّة الفصحى، وقد لا يكون المشهَد التمثيليُّ موظفًا في العمل الدراميِّ، وليس من هدف وراء ذلك سوى أن تظهر عربيَّتنا الفصحى على لسان أُناس ينبذهم المجتمع لسوء فعالهم، حتى تُنْبَذَ العربيَّة الفصحى بعد ذلك.

إنَّ الحفاظ على تراثنا العربيِّ بمقدراته ومقوماته ليس عملًا فرديًّا فحسب، وإنَّما هو عملٌ مؤسَّسيٌّ، يجب أن تضطلع به الحكومات والمؤسَّسات، بإحياء التُّراث العربيِّ المخطوط؛ وذلك بتحقيقه تحقيقًا علميًّا في شتَّى فروع العلم، وتيسير نشره لتعُمَّ الإفادة منه، ومحاولة ترجمته إلى الغرب؛ لتحقق التَّرجمة أهدافها، والتي من أهمها التواصل بين الشُّعوب المختلفة والثَّقافات المتنوِّعة، وتصحيح صورة العربيِّ، الذي أصبح لا يشارك في الحضارة الإنسانيَّة إلا مستهلكًا، ثُمَّ محاولة النُّهوض العلميِّ بالتَّأليف والابتكار والاختراع، القائم

على تحقيق التُّراث من جانب التواصل مع الماضي الذي يُعَادُ اكتشافه، والإفادة من المنجز الغربيِّ في الحضارة الحديثة والتي أصبحنا بمعزلٍ عنها.

فلقد كان للمستشرقين فضل السَّبق في تحقيق التُّراث العربيِّ ونشره، فمن جهودهم: نَشْرُ توماس إرينيوس (ت 1624م) كتاب "مجمع الأمثال" للميدانيِّ، وَنَشْرُ يعقوب جوليوس (ت 1667م) كتاب "لاميَّة العجم" للطغرائيِّ، وَنَشْرُ إدوارد بكوك (ت 1691م) كتاب "مختصر الدول" لابن العبريِّ، وَنَشْرُ سلفستر دي ساسي (ت 1838م) كتاب "كليلة ودمنة" لبيدبا، وَنَشْرُ كترمير (ت 1852م) كتاب "الرَّوْضَتَيْن" لأبي شامة، وَنَشْرُ فلوجل (ت 1870م) كتاب "الفهرست" للنَّديم، وَنَشْرُ كوسان دي برسفال (ت 1871م) كتاب "مقامات الحريريِّ"، وَنَشْرُ فان فلوتن (ت 1903 م) كتاب "البخلاء" للجاحظ، وَنَشْرُ دي خويه (ت 1909م) كتاب "تاريخ الطَّبري"، وَنَشْرُ لايل (ت 1920م) كتاب "شرح المفضَّليَّات" لابن الأنباريِّ، وَنَشْرُ رودلف جاير (ت 1929م) "ديوان الأعشى"، وَنَشْرُ بيفان (ت 1934م) كتابَ "نقائض جرير والفرزدق".

تلاهم جيلٌ من الرُّوَّاد العرب الذين هاموا بالتراث عِشْقًا فأصبحوا سَدَنَةَ المخطوط العربيِّ، كما امتدَّت أجيال المحققين من سائر الأقطار العربيَّة الذين عرفوا بالدقَّة والتَّثبُّت والإحاطة، وجاء على رأسهم: شيخ العروبة أحمد زكي باشا، وأحمد تيمور باشا، وعبدالسَّلام محمَّد هارون، ومحمَّد أبو الفضل إبراهيم، والسيد أحمد صقر، وأحمد محمد شاكر، ومحمود محمَّد شاكر، ومحمد علي البجَّاويّ، ومحيي الدِّين عبدالحميد، وناصر الدِّين الأسد، وسليمان دنيا، وحمد الجاسر، وإبراهيم شَبُّوح، وإحسان عبَّاس، وعبدالهادي التَّازي، ومحمد بن شريفة، وراتب النَّفَّاخ، والطَّاهر أحمد مكِّيّ، ومحمود علي مكِّيّ، ومصطفى جواد، وعادل سليمان جمال، وعبدالفتَّاح الحلو، وحسين نصَّار، وصلاح الدِّين المنجد، ورمضان عبد التَّوَّاب، وفؤاد سيِّد، وأيمن فؤاد سيِّد، والسَّعيد عبادة، وعصام الشَّنطيّ، ومحمود الطَّناحيّ.

تبقى الإشارة إلى المشروع القوميِّ للتَّرجمة، بما قدَّمه ولايزال من المؤلَّفات العالميَّة إلى اللُّغة العربيَّة، ولكن يجب أن ينشط هذا المشروع في التَّرجمة من اللُّغة العربيَّة إلى اللُّغات الأخرى؛ لأننا بالتحقيق والتَّرجمة نقف وقوف الثَّابت في أرض الحضارة، فيستقيم ظلنا في أرض الواقع، علَّنا نُوَطِّئُ لفكرة الابتكار التي ربما تمس عقولنا ولو مَسًّا خفيفًا.

إنَّ من أراد أن يُقَدِّرَ حضارة أمَّة، فلينظر إلى فهارس مؤلَّفاتها؛ المخطوط منها والمطبوع، ويتلمس الموجود منها والمفقود، والمحقَّق منها والمترجم، ولاشكَّ أنَّ الفهارس التي حفظها الحرف العربيُّ في تراثها لا تبارَى، وتكفي مطالعة: "تاريخ الأدب العربيِّ" لكارل بروكلمان، و"تاريخ التُّراث العربيِّ" لفؤاد سزكين، و"معجم المطبوعات العربيَّة والمعربة" ليوسف إليان سركيس، و"معجم المخطوطات المطبوعة" لصلاح الدِّين المنجد، و"الأعلام" لخير الدِّين الزِّركليِّ، و"معجم المؤلِّفين" لعمر رضا كحَّالة.

إذن فأيُّ تحرُّك في اتِّجاه إحياء التُّراث العربي الإسلامي، هو أعظم وسيلة تعيد تَلاحُمَ الأمَّة العربيَّة الإسلاميَّة، بجذورها الضاربة في عمق التَّاريخ، وعمليَّة الإحياء بمنزلة الرِّيِّ لشجرة الحضارة الإنسانيَّة، التي مازال لها بذورٌ كامنةٌ في تراثنا العربيِّ.

فإنَّ كيان الهويَّة العربيَّة يتهدد، مما يحتم علينا أن ننـزعج، فنبحث تارةً أخرى عن الوسطيَّة الإسلاميَّة بوصفها قُوَامَ الهويَّة، واللُّغة العربيَّة بوصفها لسان الهويَّة، ونمُدَّ مساحة الجمال تارةً أخرى بعدما تآكلت مساحته في مجتمعنا المصريِّ، فعلى المؤسَّسات كالأزهر الشَّريف والمجمع اللُّغوي أن يقوم كل بدوره في الحفاظ على "الدين" و"اللُّغة" بوصفهما رافدي الهوية، ولكن.. في كل عام يعقد المجمَعُ اللُّغويُّ المصريُّ مؤتمرَهُ العالميَّ، مثل: "اللُّغة العربيَّة وتحديات العصر"، و"اللُّغة العربيَّة في التَّعليم"، و"اللُّغة العربيَّة في الإعلام"، ويقدم أبحاثًا ويناقش قضايا ويحل إشكاليَّات، والسُّؤال إذن: أين دور صانع القرار السِّياسيِّ حتى يفعل تلك التَّوصيات ويقر هذه النَّتائج؟!

وقديمًا قامت مجلة الهلال باستفتاء، عنوانُهُ: "حضارتُنَا القادمةُ فرعونيَّةٌ أم عربيَّةٌ أم غربيَّةٌ؟"، وكانت مشاركة طه حسين تَشِي بأنَّ المزيج الحضاريَّ هو سِرُّ الرُّسوخ والتَّنوُّع، فأوصى بـ"أن نحتفظ من الحضارة المصريَّة القديمة بما يلائمُنا وهو الفنُّ، ومن الحضارة العربيَّة بالدين واللُّغة، وأن نأخذ من الحضارة الأوربيَّة كل ما نحتاج إليه، وليس في هذا شَرٌّ ما دمنا نحتفظ بشخصيتنا المصرية، فلا تفسد علينا هذه الحضارة الأوربيَّة حياتنا، على أننا أمَّةٌ لها مـوماتها الخاصة"، (عدد أبريل 1931م- ص 821).

وصدر قرار الأمم المتحدة رقم (ثلاثة آلاف ومائة وتسعين)، في الجلسة العامَّة رقم (ألفين ومائتين وستَّة)، والمنعقدة في (الثامن عشر) من شهر ديسمبر سنة (ألف وتسع مائة وثلاث وسبعين) ميلاديَّةً، بإدراج اللُّغة العربيَّة ضمن اللُّغات الرسميَّة ولغات العمل المقرَّرة في الجمعيَّة العامَّة ولجانها الرئيسة، ونصُّهُ: "إنَّ الجمعيَّةَ العامَّةَ إذْ تدركُ مَا للُّغة العربيَّة من دور هام في حفظ وَنَشْر حضارة الإنسان وثقافته، وإذْ تدركُ أيضًا أنَّ اللُّغةَ العربيَّةَ هي لغةُ تسعةَ عشرَ عضوًا من أعضاء الأمم المتَّحدة، وهيَ لغةُ عمل مقرَّرةٌ في وكالات متخصصة، مثل: منظَّمة الأمم المتحدة للتَّربية والعلوم والثَّقافة، ومنظَّمة الأمم المتَّحدة للأغذية والزراعة، ومنظَّمة الصحة العالميَّة، ومنظَّمة العمل الدَّوليَّة، وهي كذلك لغة رسمية ولغة عمل في منظَّمة الوحدة الأفريقيَّة، وَإذْ تدركُ ضرورةَ تحقيق تعاون دولي أوسع نطاقًا، وتعزيز الوئام في أعمال الأمم وفقا لما ورد في ميثاق الأمم المتَّحدة، وإذْ تلاحظ مع التقدير مَا قدمته الدول العربيَّة الأعضاء من تأكيدات بأنَّها ستغطي –بصورة جماعيَّة- النَّفقات النَّاجمة عن تطبيق هذا القرار خلال السنوات الثلاث الأولى، تقرر إدخال اللُّغة العربيَّة ضمن اللغات الرسمية ولغات العمل المقررة في الجمعيَّة العامة ولجانها الرئيسية، والقيام بناء عليه بتعديل النظام الداخليّ للجمعية العامة المتصلة بالموضوع"، وبعد هذا القرار صار يوم الثامن عشر من ديسمبر كل عام يومًا عالميًّا للُّغة العربيَّة.

ولكن بعد مرور زهاء نصف قرن على هذا المكتسب الحضاريِّ، فإنَّ اللُّغة العربيَّة تعاني مأزقًا حضاريًّا، يجب أن نتنبَّه له وننبِّه إليه، بل وندقُّ ناقوس الخطر، فلم تخرج العربيَّة من أحد مواطنها في الماضي فحسب، كما هي الحال في الأندلس، بعدما تربعت على عرش مجالسها العلميَّة والسياسيَّة ثمانية قرون، بل إنَّ العربيَّة في تاريخنا الحديث والمعاصر تلقَّت من الهزائم النَّكراء والطَّعنات النَّجلاء الواحدة تلو الأخرى، والمأساة لم تكتمل فصولًا؛ فقد خرجت العربيَّة من إيران وحلَّ محلَّها اللسان الفارسيُّ، وخرجت من تركيا وحلَّ محلَّها اللِّسان التركي، كما خرجت من جنوب السُّودان وبعض أقاليم العراق، ومن قبل نجحت بعض الدَّعوات باستبدال الخطِّ اللَّاتينيِّ بالخطِّ العربيِّ الذي كانت تكتب به بعض اللُّغات الإسلاميَّة.

وفي الوقت الرَّاهن ساعدت عوامل متعددة على كتابة كثير من الشَّباب العربيَّة بالحرف اللَّاتينيِّ أو ما يعرف بـ"فرانكوأراب"، مثل: العالم الافتراضي على الشبكة العنكبوتيَّة الدولية "إنترنت"، والصفحات الشخصية "فيسبوك"، والتغريدات "تويتر"، والرسائل التليفونية "واتساب"... وغيرها، فيما يعَد تعديًا لغويًّا ضدَّ لسان هويَّتهم، وكأنَّهم استجابوا لدعوات مغرضة، حسبنا أحداث الماضي قد وارتها وأخفى الثرى معالمها، وأخشى أن أقول: البقيَّة تأتي! فقد تزعزعت العربيَّة وكاد ركنها أن ينهدم في غير إقليم عربيٍّ إسلاميٍّ؛ بسبب ضعف الانتماء العربيِّ، وسيطرة المدِّ الغربيّ، وتراجع منظومة التَّعليم، وخفوت جذوة الإبداع... وغيرها، داخل بيئات العربيَّة في مقابل الانبهار بالحضارة المعاصرة، التي صرنا سوقًا لترويج منْتجها، بما في ذلك الثَّقافات ولغاتها.

إنَّ الحراكَ السياسيَّ الهادر يدفعنا إلى أن نضع أهدافًا لتأخذ سبيلها نحو التحقق، فلابدَّ أن يكون العلم هدفًا استراتيجيًّا لبناء الوطن، والنَّظر إلى الثَّقافة بوصفها وزارةً سياديَّةً، فمجتمع جاهل من شأنه أن يحول الثَّورة إلى فوضى، ومجتمع نصفه أميون كفيل بأن ينقض ما يبنيه المتعلِّمون، ولن يبلغ بنيان الوطن يومًا تمامه مادامت يدٌ تبني وأخرى تهدم في الوقت ذاته، ومن العلم والثَّقافة نستدعي التَّاريخ، ونستلهم التُّراث، ونفقه الواقع، ونستشرف المستقبل، ونقبل الآخر.

فإنَّ المثقَّف الحقيقي -والحقيقي هنا أعني به المنتمي- هو الذي يتخذ من عمق التَّاريخ أداةً لاستشراف المستقبل، وليس المثقَّف عَرَّافًا تنظر نُبُوءَتُهُ، ولكنَّه مُشيد لصروح المستقبل ممَّا استجاده من لبنات الماضي، وتبدو الرُّؤية الثَّقافيَّة أشد تكاملًا وأعمق أثَرًا إذا كان المثقَّف يضرب بسهم إلى الإبداع عامَّةً والأدب خاصَّةً، فالأديب أَرْهَفُ حسًّا وأنفذ فكرًا وبالتَّالي أمضى رأيًا.

ولمَّا كان الأديب يعبر بالأسلوب الذي يبهر المتلقي حتى يستشعر معه العجز، فقد نظر إلى الأدب كتجليات للثَّقافة التي تبني الأمَّة، ويهدر النص الأدبي بعرائس الآمال وأشباح الآلام، فيستشعر كل متلق على حدة أنَّه ممثل في النص الأدبي بشكل ما أو من زاوية ما أو بطريقة ما، وكم التقطت عين الأديب أنماطًا من البشر بين تليد وطارف، وسجلتها ذاكرته فغدا النَّصُّ الأدبيّ وثيقةً تاريخيَّةً للأمة، وكم خلبت آدابٌ بشرًا فغيرت مصائرهم لما استوقفت بصائرهم؛ لذا فإنَّ من يبحث عن أركان الهوية بمقوِّمَاتها ومعوقاتها، فلابدَّ أن يتوقف عند تجلياتها في الأدب.

فالانحراف الفكريُّ البادي في التطرف، والتعدي الفعلي البادي في الإرهاب، علاجهما الناجع في الثَّقافة، فالنهل من العلوم الإنسانيَّة يقيم ما اعوج من فكر، ويصلح ما اضطرب من فعل، فباللُّغة يُستجلى منطق العقل، ويُستحلى منطق اللسان، وبالفلسفة تعمق الأفكار، وبالأدب تَرِقُّ المشاعر.